الفصل الثاني

الشخصية القومية
تواجه العصبيّة والتعصّب

بعد أن نجح الاسلام ودولته العربية نجاحا ملحوظا في وضع أشتات القبائل العربية على طريق الاندماج القومي ، وفق المضمون القومي الحضاري والانساني والمستنير الذي قدمه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لمن هو « العربي » ولماهية « العروبة » . . وبعد أن أثمر هذا الانجاز العظيم والتاريخي ثمرات عظيمة وتاريخية أنقذت العرب من القهر ، وجعلتهم قادة المنطقة ، وحققت لهم بالفتح الثأر من خصوم الأمس ، فرسا وروما . . بعد هذا الانجاز . عاد الخطر يطل على الوحدة القومية للدولة العربية من جديد . . واشتد هذا الخطر في ظل الدولة الأموية (٤١ ـ ١٣٢ هـ ـ ٦٦١ ـ ٧٥٠ م) على وجه التحديد . .

فالفتوحات التي انجزها العرب قد شملت ، في تلك المرحلة ، كلا من العراق والشام . . وسكان هذه البلاد هم عرب ، كانوا ، قبل هذا الفتح ، يرزحون تحت نير الحكم الفارسي أو البيزنطي ، ومن ثم فلقد كان فتح العرب المسلمين لبلادهم هذه « تحريرا » عربيا اسلاميا لبلاد عربية وأقوام عرب ، لا شبهة في طبيعته هذه على الاطلاق . . ولقد شارك عرب هذه البلاد الجيش الفاتح في قتاله ضد حاميات الفرس وجيوش الروم ، رغم اختلاف العقائد والديانات . . ومن ثم فلم تكن هناك « مشكلة قومية » خلقها هذا الفتح ، ولم يظهر « تناقض قومي » بين سكان هذه البلاد وبين العرب المسلمين الفاتحين .

ولقد شمل الفتح العربي الاسلامي ايضا : مصر ، وبلاد الشمال الأفريقي . . ولم تكن هذه المناطق عربية ، كالعراق والشام ، ولكن مصر كانت قريبة من العرب ، فلها بالسامية والساميين علاقات قديمة ، واليها تمت هجرات سامية من شبه الجزيرة على مراحل متتالية ومتباعدة في التاريخ ، وكثيرون يرون في « عروق » أبنائها ، يومئذ ، وفي لغتها القبطية آثارا لعلاقات كثيرة بالسامية والساميين[١] . . . ثم إن مصر ، ومثلها في ذلك ما فتح من بلاد الشمال الافريقي ، كانت ترزح تحت قهر الروم البيزنطيين ، ومن ثم فلقد رأوا في الفتح العربي حركة « تحرير » للمنطقة من غزاة أجانب ، وكان الفاتحون العرب أقرب إلى قلوب أهل تلك البلاد من الرومان . . فهم ، على عكس الرومان ، تركوا لهم حرية الاعتقاد الديني ، فعاد القبط الى مدنهم بعد أن كانوا قد هجروها إلى الصحراء ، وبنوا واستعادوا كنائسهم بعد أن حرموا منها طويلا وعبدوا الله في الكهوف والمغارات ، بل واعتمد عليهم العرب كل الاعتماد في بناء جهاز الدولة الجديد ، وعهدوا اليهم بوظائف الديوان . . ثم ان الحضارة القبطية كانت قد تلقت على يد الروم البيزنطيين من الضربات ما أضعفها وأوهن من عزمها ، يضاف الى ذلك أن الكثير من مقومات هذه الحضارة وقيمها ، ذات الأصل المصري القديم ، كان قد ضعف بعد تحول مصر إلى المسيحية ، بسبب الموقف الذي وقفته الديانة المسيحية من العناصر والمقومات والقيم الوثنية في ذلك التراث الحضاري . . ومن ثم فلم تكن لقبط مصر الذين أعادهم الفتح العربي إلى ظهر الأرض بعد أن كان البيزنطيون قد أجبروهم على الاختفاء تحت رمال صحرائها ، لم تكن لهم يومئذ حضارة شابة مزدهرة تستطيع أن تنافس الوليد الحضاري الشاب والجديد ـ الحضارة العربية الاسلامية ـ فأقبلوا ، غير نادمين ، على الاسهام بمواريثهم الحضارية في بناء هذا الكيان الحضاري الجديد ، وقنعوا بدور المسهم فيه ، ولم يقفوا منه موقف المعادي أو النقيض . . ومن ثم فلم يكن

---

(١) انظر : مكرم عبيد باشا : مجلة (الهلال) عدد ابريل سنة ١٩٣٩ م . و : د . عبد المجيد عابدين (البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب) للمقريزي . « الملحق » ص ٧٧ ـ ٩٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م و : د . أحمد مختار عمر (تاريخ اللغة العربية في مصر) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

أهل هذه البلاد مصدرا لمشاعر قومية معادية للعرب ، ولم يعهد أن نشأت في ربوعها أفكار « شعوبية » في أية مرحلة من مراحل التاريخ التي أعقبت عصر الفتوحات . .

لكن الامر لم يكن كذلك فيما تم فتحه من البلاد شرقي العراق ، وفارس منها على وجه التحديد . . فالفرس والساسانيون لم يكونوا عربا ، ولا ساميين . . وبلادهم لم تكن ، قبل الفتح ، رازحة تحت الاحتلال ، بل كانوا هم الغزاة الذين خضعت لهم بلاد عربية كثيرة ، دائما أو في فترات متفرقة من التاريخ . . وأكثر من ذلك فلقد كانت لهم قيادة الشرق في صراعه التاريخي ضد الاغريق ثم ضد الروم البيزنطيين ، ولأجله قادوا معارك هذا الصراع ، وباسمه كانوا يتحدثون . . وأخيرا فان ميراثهم الحضاري كان كبيرا وهاما وحيا ومتميزا ، رغم ما أصابه من وهن وشيخوخة لاستبداد أكاسرة الساسانيين ونظامهم الطبقي المغلق وحكمهم بالحق الإلهي . . الخ . . ولقد كان طبيعيا ، لهذه الأسباب ، ان لا يتقبل الفرس فتح العرب لبلادهم كما تقبله الآخرون ، والا ينظروا اليه « كحركة تحرير » ولا « كمد تحرري » . . بل على العكس من ذلك تماما ، فلقد رأوا فيه قهرا عربيا لأمة متميزة وعريقة ، واحتلالاً أجنبيا من قوم هم اقل منهم تحضرا ، وثأرا عربيا لاحتلال فارسي للأرض العربية قديم . . ورأوا فيه كذلك نقطة تحول يتسلم فيها العرب زمام قيادة الشرق كله بعد أن كان ذلك لهم وحدهم طوال تاريخ طويل . . ولهذا اجمع الفرس واجتمعوا ـ الا قليلا منهم ـ على رفض العروبة والتعرب ، واتخذوا موقف العداء ، ظاهرا أو مستترا ، من الدولة العربية . . وتراوحت مواقفهم ، اعتدالاً أو تطرفا ، داخل هذا الاطار الذي جمعهم جميعا ، فالمعتدلون منهم رحبوا بالاسلام ، كدين ، ورفضوا العروبة ، قومية ودولة . . والمتطرفون من بينهم رفضوهما معا ، إذ ربطوا بين العروبة والاسلام . . وكانت « الشعوبية » سلاحهم واطار تحركات فرقائهم أجمعين . . وكانت منطقتهم هذه الموطن الوحيد الذي ظهرت وازدهرت وعاشت « الشعوبية » فيه ! . .

واذا كانت الشعوبية تعني : تحقير العرب ، والازدراء بكل ما هو عربي ، وتجريد العرب من أي فضل أو ميزة ، فضلا عن أي امتياز[1] . . فان منهم ، كما قلنا ، الذين اعتدلوا في رفضهم للعرب والعروبة ، فلم يجردوا العرب من كل الميزات ، ولكنهم جردوهم من « الفضل » ، وقالوا إن العرب ليسوا « شعبا » ، أي ليسوا أمة ولا قومية ، ولكنهم مجرد « قبائل » ، أما الفرس فانهم « شعب » من « الشعوب » ، وطالبوا أن تقف العلاقة بين « الشعب » الفارسي « المسلم » وبين « القبائل » العربية « المسلمة » عند حدود « التعارف » ، لا الوحدة ولا الاندماج السياسي والاداري والقومي والحضاري ، واستشهدوا لموقفهم هذا بقول الله سبحانه :﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] . . فهم دعاة مساواة ، على اساس من الاسلام ، وهم رافضون لفضل العرب وامتيازهم ، ومن ثم رافضون لدخول الفرس في اطار التبعية للدولة العربية ، ولتولي العرب زمام القيادة ، بدلا منهم ، في المنطقة . .

أما التيار الشعوبي الأكثر غلواً فهو الذي لم يقف أصحابه عند حد انكار فضل العرب وامتيازهم ، بل ذهبوا الى تحقير العرب وتجريدهم من كل الفضائل ، وهم في سبيل ذلك حقروا ، لا تاريخ العرب فقط ، بل واقعهم وحاضرهم ، الفكري منه والمادي ، فرأينا من يحقر ، بل ويهجو : الجمل ، لأنه حيوان الصحراء العربية ! وكذلك النخلة ! والعصا التي يعتمد عليها خطباء العرب وهم يخطبون ! والبداهة والارتجال عند الخطباء ! وكذلك أطعمة العرب وأزياءهم . . الخ . . الخ . . بينما يفضلون ويمدحون كل ماهو غير عربي ، وبالذات ما كان فارسيا . . ويعيدون ويبالغون في الحديث عن اذلال ملوك الفرس للعرب عبر التاريخ القديم . . ويبعثون عقائد الفرس الدينية القديمة ـ الزرادشتية والمانوية والمجوسية ـ ويحاولون إدخالها في عقائد الاسلام . .

---

(١) انظر : ابن منظور (لسان العرب) طبعة القاهرة . والزمخشري (أساس البلاغة) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

(٢) الحجرات : ١٣ .

ويستخدمون الشك والمجون اسلحة يوهنون بها التدين عند العرب المسلمين . . ولقد استهدف هذا التيار ، من تيارات الشعوبية ، لا المساواة بين الفرس والعرب ، ولا حتى انفصال الفرس عن العرب ، سياسيا وادرايا ، بل تحطيم الدولة العربية ، واعادة العرب إلى وضع التبعية للفرس وتسليم زمام القيادة بالمنطقة للفرس ثانية كما كان الحال قبل الاسلام . . ولقد اصبحت هذه الشعوبية ، بهذا المضمون ، « دينا » يتدين به هذا التيار الفارسي ، دين تدور عقائده وشعائره حول محور : بغض العرب بل وقتلهم !. . حتى لقد صدق نصر بن سيار (٤٦ - ١٣١ هـ - ٦٦٦ - ٧٤٨ م) عندما قال عنهم ، إنهم :

قوم يدينون دينا ما سمعت به عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم فان دينهم : أن تقتل العرب[1] !

ومن يتأمل كلمات قحطبة بن شديد التي خطب بها اهلي خراسان سنة ١٣٠ هـ يستعديهم فيها ضد العرب يجد مصداق ما نقول . . قال لهم : « **يا أهل خراسان ، هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين . . حتى استولت عليها أذل أمة كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ، واستنكحوا نساءهم ، واسترقوا أولادهم . . والآن سلطكم الله عليهم ، فاطلبوهم بالثأر ، وانتقموا منهم ، ليكونوا اشد عقوبة !. .**[2] .

وكانت رأس الحربة الشعوبية مصوبة إلى دولة بني أمية في الأصل والأساس ، ففي بني أمية كانت تتمثل يومئذ عصبية العرب ، التي كانت تغالي ، تاريخيا ، في تفضيل العرب على غيرهم ، وتلجأ كثيرا الى نعرات العصبية والتعصب العربي ضد غير العرب ، ثم انهم هم الممثلون لأشراف العرب وملأ قريش القدماء ، وكما يقول ابن خلدون فان عصبية قريش تركزت في مضر ، وعصبية مضر تركزت في الأمويين !. .[3] كما أن قيام الدولة الأموية

---

(١) عبد الصاحب الدجلي (الشعوبية) ص ١٤ طبعة النجف سنة ١٩٦٠ م .
(٢) ابن ابي الحديد (شرح نهج البلاغة) ج٥ ص ٢٩٣ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م .
(٣) (المقدمة) ص ١٧١ .

بالشام ، حيث البيئة العربية الخالصة ، وحيث أشراف العرب الذين نصروا معاوية بن ابي سفيان (٢٠ق . هـ ٦٠هـ ـ ٦٠٣ ـ ٦٨٠ م) ضد علي بن ابي طالب في الصراع على الخلافة ، وتركز الموالي في المشرق ، بالعراق وفارس ، حيث المناطق التي ناصرت علياً في هذا الصراع ، قد زاد من فقدان الثقة بين بني أمية وجموع الموالي . . ومن هنا نستطيع أن نفهم معنى الكلمات التي بعث بها الداعية العباسي ، المناهض لبني أمية ، والمتحالف مع التيار الشعوبي : ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (٨٢ ـ ١٣١ هـ ٧٠١ ـ ٧٤٩ م) إلى ابي مسلم الخراساني (١٣٧هـ ـ ٧٥٥م) والتي تقول : « إن استطعت الا تدع بخراسان احدا يتكلم بالعربية الا وقتلته فافعل . . **وعليك بمضر ، فانهم العدو القريب الدار ، فأبد خضراءهم ، ولا تدع على الأرض منهم دياراً ؟!** »[1] . . وأخيرا فلقد كانت السلطة السياسية ، يومئذ ، بيد بني أمية ، فكان حتما أن توجه اليهم والى دولتهم والى عصبيتهم العربية رأس الحربة ونصل الخنجر وكل ما في ترسانة الشعوبية من أسلحة وأدوات قتال . .

وكرد فعل للغلو الشعوبي ، واتساقا مع العصبية العربية التقليدية لبني أمية ، ذهب الأمويون في عدائهم لغير العرب إلى نهاية الشوط وطرف الخيط وآخر الطريق . .

وشهدت ساحة الدولة والمجتمع العربي الوقائع والمظاهر لأعظم التحديات التي واجهت انجاز الاسلام والدولة العربية الأولى على درب الفكر القومي المستنير والتآلف والوحدة بين ابناء الدولة الجديدة .

* فالشعوبيون يصعِّدون تذمر الموالي واحتجاج فقراء العجم حتى لا يقف عند طلب العدل والانصاف ، وانما يذهب إلى طلب فصم وحدة الدولة ، وتأريث العداوة والبغضاء لا للسلطة الأموية العربية فقط ، وانما لكل ما هو عربي ! . .

* والأمويون يسقطون اسماء الموالي من ديوان العطاء . . ويشركونهم في

---

(١) (تاريخ الطبري) ج٩ ص ١٢٣ . و (شرح نهج البلاغة) ج٣ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

الحرب مشاة محرومين من شرف الفرسان . . ويجعلون من جموعهم وقودا في المقدمة بحجة الحيلولة بينهم وبين الفرار ! .

ويظلون يجمعون الجزية ـ رغم ضآلتها المالية ، ولكن للاذلال ـ ممن دخل الاسلام من هؤلاء الموالي ، رغم تعارض ذلك مع شريعة الاسلام . . . ويفتحون الباب لسادة العرب وأشرافهم فيشترون أرض الخراج الجيدة ـ وهو الأمر الذي يخالف التنظيم الذي وضعه لها عمر بن الخطاب ، عندما أقر فيها أهلها نظير الخراج ـ وذلك على الرغم من الأثر السلبي لذلك على خزانة الدولة ، لأنها تتحول بملكية العرب لها من ضريبة الخراج إلى ضريبة العشر ، وهي اقل من ضريبة الخراج ! . . فاذا ما غادر الموالي قراهم الى المدن التي يسكنها العرب رأينا واليا أمويا مثل الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ ـ ٩٥ هـ ٦٦٠ ـ ٧١٤ م) يجمعهم ، ويحضر أختام الحديد المحماة في النار فيختم بها أقفيتهم ، علامة اذلال تتحدد فيها قراهم كي يلزموها ولا يغادروها ، قائلا لهم : « أنتم علوج وعجم ، وقراكم أولى بكم » ! . . بل لقد بلغ الحجاج في التعصب ضد الموالي إلى حد منع المسلم منهم أن يصلي إماماً اذا كان خلفه عربي في الصلاة ! . . والى حد التفريق ، بالطلاق ، بين المرأة العربية وزوجها اذا تزوجت مسلما غير عربي ! . . ووجدنا رجلا مثل نافع بن جبير (٩٩ هـ ٧١٧ م) اذا ما مرت به جنازة ، سأل : من هذا ، فان قالوا : قرشي ، قال : واقوماه ! واذا قالوا : عربي ، قال : وابلدتاه ! ، واذا قالوا : مولى ، قال : هو مال الله ؛ يأخذ ما شاء ويدع ما شاء ؟! . . وشاعت بين الناس الحكم والأمثال التي تحقر من الموالي وتزري بهم ، من مثل قولهم : « لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى[1] » ! . . الخ . . الخ . . وبعد أن رسخ الاسلام وتراث العرب في صدر الاسلام مبدأ المساواة بين الناس ، وحصر التفاضل بينهم في التقوى والعمل الصالح ، وجدنا من يخص هذه المساواة بالدار الآخرة ، وتجاهلوا قول الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » ، بل وقرروا ما هو مضاد لمعنى

(١) ابن عبد ربه (العقد الفريد) ج٣ ص ٤١٣ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

هذا الحديث ، فقالوا : « إن العرب اذا ذمّت قوما قالوا : سواسية كأسنان الحمار » ! . .[1] حدث ذلك ومثله كثير ، رغم فكر الاسلام ، الذي بشّر به الرسول ، في المساواة ، ورغم تراث التجربة العربية الاسلامية في دمج الموالي بذوي الاصول العرقية في كل قومي واحد ، ورغم ما تحقق في هذا الميدان من نجاح .

* ولقد لعب الموقف الاجتماعي دوره في هذه القضية ، فوجدنا « سادة » العجم و « اشراف » الموالي متحالفين مع الدولة الاموية ، يساندون ظلمها لجمهور الموالي والأعاجم ، لأنهم يقتسمون الثراء المجموع ، او على الأقل ينالهم منه نصيب ، ولأنهم ـ كما قدروا ـ سيستفيدون من الاضطهاد اذا هو تصاعد فدفع الموالي إلى فصم وحدة الدولة ، وعند ذلك يعود هؤلاء « السادة » قادة وسادة في الملك الفارسي من جديد ، كما كانوا في القديم ! . . ولم ينتبه متعصبو العرب الى خبث الدهاقين هذا ، فرأينا منهم من يصب ذمّه وعداءه على « عامة » الموالي ، ثم يمدح « السادة والأشراف » . . ويعبر ابن قتيبة (**٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ ٨٢٨ ـ ٨٨٩ م**) عن رأي أصحاب هذا الموقف عندما يقول : « . . ولم أر في هذه الشعوبية ارسخ عداوة ولا أشد نصبا للعرب من السفلة والحشوة واوباش النبط وأبناء أكرة ـ (أجراء) القرى ، فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسبا ثابتا » ؟ ![2] . .

* وتصارعت في ساحة الفكر ، بالمجتمع ، مؤلفات عن « فضل العرب » و « فضائلهم » مع تلك المؤلفات الشعوبية عن « مثالب العرب » و« نقائصهم » ! . . .

* وضاعت الحقيقة ، أو كادت ، بين عصبية العرب وتعصب الشعوبيين . . وكادت لهذا كله أن تنطمس المعالم التي ارستها على طريق الوحدة

---

(١) (العقد الفريد) ج٣ ص ٤٠٩ .
(٢) (كتاب العرب) ص ٢٧٠ ، منشور ضمن (رسائل البلغاء) .

القومية تجربة الخلافة الراشدة في التأليف بين ابناء الدولة الواحدة ، على اختلاف اصولهم العرقية ومواريثهم الحضارية ، وكادت ، لهذا كله أيضا ، أن تنطفىء الشعلة المقدسة التي أوقدها الاسلام على هذا الطريق . . . وكادت ، ايضا أن تتمزق وحدة الدولة ، وينتكس الفكر القومي ، ويضل الناس طريقهم إلى التآلف والاندماج ، وتعود العصبية العربية الجاهلية فتقتسم وزر هذه الانتكاسة مع التعصب الأعمى للشعوبية والشعوبيين . .

* * *

لكن الساحة لم تكن وقفا على هذين التيارين ، ولم تكن مقصورة على هذين اللونين من ألوان الفكر . .

* ففي الميدان الاجتماعي قامت ثورات عدة ، ضد مظالم بني أمية واستبدادهم بالسلطة ، شارك فيها العرب والموالي على السواء ، وانتفى منها الحس العنصري ، وألَّفت بين العرب والموالي فيها وحدة الموقف الاجتماعي ، والاشتراك في المصالح ، والانطلاق من العوامل والظروف الكثيرة التي كانت قائمة في المجتمع تؤلف وتجمع بين مواطني هذه الدولة ، بصرف النظر عن الأصول العرقية والمواريث الحضارية . . فلم يكن واقع المجتمع ـ لحسن الحظ ـ قاصرا على العوامل التي تفرق وتمزق ، بل كان زاخرا بالفكر الذي يسوي ويؤلف ، وبالمصالح التي تجمع وتوحد ، بل وبالأخطار التي لا يمكن دفعها عن الجميع الا اذا اتحد الجميع . . ومن هنا كانت الأرضية التي انطلق من فوقها تيار آخر ، غير هذين التيارين اللذين غرقا في التعصب والعصبية . .

فالشيعة ، وهي واحدة من حركات المعارضة لبني أمية ، ضمت كلا من العرب والموالي ، وان كانت غلبة الموالي والأعاجم على تركيبها ، في بعض المناطق وبعض الفترات ، قد جعل صوتها القومي خافتا بعض الشيء ، وحسها العربي ليس بالوضوح المنتظر والمطلوب . .

وتيار من **المرجئة** ، وهو التيار الذي عارض بني أمية ، قد انخرط في ثوراته على مظالم العرب والموالي على السواء . . حدث ذلك في الثورات التي

قامت في « السغد » ، بالقرب من سمرقند ، وفي « بخارى » ، وفي « البصرة » . . وهي الثورات التي شارك فيها عدد غير قليل من فقهاء ذلك التاريخ - (القراء) . . ووضح ذلك ايضا في ثورة عظيم الأزد الحارث بن سريج (١٢٨ هـ ٧٤٦ م) ضد هشام بن عبد الملك (٧١ - ١٢٥ هـ ٦٩٠ - ٧٤٣ م) وهي الثورة التي اندلعت سنة ١١٦ هـ[١] . . .

والخوارج : تحققت في تنظيماتهم وجماهير فرقهم وجيوشهم الثائرة المساواة التامة والتآلف والتأليف بين الناس ، بصرف النظر عن الأصول العرقية والمواريث الحضارية ، حتى لقد رأيناهم ينصبون واحدا من الموالي اميرا للمؤمنين عليهم ، وهو ثابت التمار ، الذي عقدوا له البيعة بامارة المؤمنين بعد امامهم نجدة بن عامر الحنفي (٣٦ - ٦٩ هـ ٦٥٦ - ٦٨٨ م)[٢]

وكذلك **المعتزلة** ، الذين جاء تنظيمهم منذ نشأته الأولى تجسيدا يترجم عن العوامل والمصالح المشتركة التي تربط مجموع المواطنين في الدولة العربية ، ويعلن أن دواعي التآلف والتأليف القومي أكبر وأخطر واعظم من اسباب التنافر العرقي والتمزق القومي . . فاثنان من أبرز قادة المعتزلة ومؤسسي مدرستها وتنظيمها ، وهما : واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١ هـ ٧٠٠ - ٧٤٨ م) وغيلان الدمشقي بعده (١٠٥ هـ -٧٢٣م) تلقيا الفكر والعلم في بيت عربي هو بيت محمد بن الحنفية - بن علي بن ابي طالب - (٢١ - ٨١ هـ ٦٤٢ - ٧٠٠ م) . ولكنهما كانا من الموالي . . . وعدد كبير من طلائع المعتزلة وقادتها وأئمتها كانوا من الموالي كذلك ، ويكفي أن نذكر منهم :

* ابو عثمان عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤ هـ ٦٩٩ - ٧٦١ م) وهو من موالي بني العدوية . .

* وابو بكر محمد بن سيرين (١١٠ هـ ٧٢٨ م) وكان مولى لأنس بن مالك . .

---

(١) انظر كتابنا (الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية) ص ١٦٩ - ١٧٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٤١ .

* وأبو محمد عمرو بن دينار (١١٥ هـ ٧٣٣ م) وكان من موالي جمح . .

* وهشام بن أبي عبد الله الدستوائي (١٥٣ هـ ٧٧٠ م) وهو من موالي بني سدوس . .

* ومكحول الدمشقي (١١٣ هـ ٧٣١ م) وكان مولى لامرأة من هذيل . .

* وأبو عبد الله محمد بن اسحاق (١٥١ هـ ٧٦٨ م) وكان مولى لقيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف .

* وأبو الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ ٨٤٩ م) وهو من موالي عبد القيس . .

* والجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ ٨٦٨ م) وكان مولى لأبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفقيمي[١] . .

* وابو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢ هـ ١٠٠١ م) وكان ابوه مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي[٢] .

ففي هذه المدرسة الفكرية ، التي ضمت العديد من الموالي ، والتي لعب دورا بارزا في قيادتها ، فكرا وتنظيما ، عدد كبير من الموالي ، في هذه المدرسة تجسدت معالم التيار الفكري الثالث ، الذي رفض عصبية بني أمية ، ذات الطابع الجاهلي ، وتعصب الشعوبية العرقي ، وقدم للحركة الفكرية العربية بواكير الفكر القومي ، في صياغاته الحضارية والانسانية والمستنيرة ، وكان بذلك المعبر عن نماء البذور الأولى التي ألقى بها الفكر الاسلامي النقي في هذا الميدان . .

وعلى سبيل المثال :

فعلى حين كانت الشعوبية تنتقص من قدر لغة العرب ، وتعلي من قدر

---

(١) انظر في هذه الأسماء وغيرها : المرجع السابق . ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ .

(٢) انظر كتابنا (نظرة جديدة إلى التراث) ص ٦٧ وما بعدها طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

الفارسية ، نجد ابن جني يقدم في كتابه (الخصائص) أروع وأعمق دفاع موضوعي عن العربية ، ويضع يدنا على الكثير من الأسرار التي تزكيها وتفسر أهليتها وجدارتها بما بلغته في ذلك التاريخ كلغة للدين والفكر والفلسفة والعلوم ، في الامبراطورية العربية ، وخارجها . .[1] .

أما الجاحظ فإننا واجدون عنده بواكير الصياغات النظرية للفكر القومي العربي ، بمضمونه الحضاري والانساني والمستنير ، حتى ليحسب المرء أنها من ثمرات العقل المستنير في عصرنا الحديث!.. فهو:

أولا : يهاجم التطرف ويدين طرفي النقيض :

فهو بجدله وحواره مع أطراف الصراع حول هذه القضية يحدد بوضوح أنه يمثل موقفا ثالثا وتيارا متميزا غير الموقفين والتيارين اللذين غطى غبار فكرهما ساحة المجتمع العربي عندما أصبحا طرفي نقيض في العصبية والتعصب . . فهو يهاجم ويدين كلا من تعصب الشعوبية ضد كل ما هو عربي ، وعصبية العرب على كل ماليس بعربي . . فيتحدث عن الشعوبية قائلاً : . . . « واعلم أنك لم تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا اعدى على دينه، ولا أشد استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصبا - (عداوة) - ولا أقل غنىا من أهل هذه النحلة . . وقد شفى الصدور منهم طول جسوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن - (العداوة والبغضاء) - في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطربة »[2] .

وهو يكشف ، ساخرا ، عن مدى الغلو الذي بلغته الشعوبية في عدائها لكل ما له صلة بالعرب ، حتى لقد سفهت من نمط معيشتهم والأدوات التي يستعملونها في حياتهم ، والنباتات التي تطيق أرضهم وتحسن صحراؤهم

---

(١) المرجع السابق . ص ٩١ - ١٠١ .
(٢) (البيان والتبيين) ج٣ ص ٤٠٥ . طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ م .

زراعتهـا !. . وجعلت من هـذه الأشيـاء رمـوزا قـوميـة صيـرتهـا أهـدافـا في الصـراع . . فيقول : « . . وبعـد ، متى صار اختيـار النخل عـلى الزرع يحقـد الأخوان؟! ومتى صار تقديم النخلة ملة ؟! وتفضيل السنبلة نحلة؟! ومتى صار الحكم للنعجة نسباً، وللكرمة صهراً ؟! ومتى تكون فيه ديانة، وتستحكم فيها بصيرة، ويحدث عنها حمية؟!. . (١)

ثم يعيب على الشعوبية جهلهم الذي قادهم اليه التعصب والـذي جعلهم يغفلون عن العلاقات الطبيعية بين بيئة كل أمة ومواريثها وملابسات حياتها وبين مالها من تقـاليد وعـادات . . فالفهم الـواعي لأسباب الـظواهر والـطبائـع يضع ايجـابيات الأمم في اطـارها ويكشـف عن الأسبـاب الحقيقيـة لما لهـا من عيـوب وسلبيات . . فالشعوبيون « لو عرفوا أخلاق كـل ملة ، وزي كل لغـة ! وعللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيئاتهم ، وما علة كل شيء من ذلك؟ ولم اختلقـوه ؟ ولم تكلفـوه ؟ لأراحـوا أنفسهم ، ولخفت مؤونتـهم عـلى مـن خالطهم !؟. . (٢) .

وهـو يدين العصبيـة والتعصب ، وينبه عـلى اثره المـدمر لكـل من الـدين والدنيا . . ويشـير الى ما وقـع فيه العجم من العصبيـة الشعوبيـة على العـرب والى مـا وقع فيـه بعض الموالي ـ (الـذين تعربـوا) ـ من تعـاليهم عـلى كـل من العجم ، الذين لم يتعربوا ، وعلى العرب ايضا ، لأن هؤلاء الموالي رأوا أنهم قد جمعـوا ميراث العجم إلى عـروبة العـرب فافتخـروا على الفـريقـين !. . وهـو ، يعيب ، كذلك ، مفاخرة العـرب بالأنسـاب ، وما تجلبـه من الشر والفسـاد . . فيتحدث مهاجما « العصبية التي هلك بهـا عالم بعـد عالم ، والحميـة التي لا تبقي دينا الا أفسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها . . وهو ما صارت اليه العجم من مذهب الشعوبية ، ومـا قد صـار اليه المـوالي من الفخر عـلى العجم والعرب . . وليس أدعى الى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة بالأنساب . . (٣) ».

---

(١) (رسائل الجاحظ) ج١ ص ٢٤٠ . تحقيق عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.
(٢) (البيان والتبيين) ج٣ ص ٤٠٦ .
(٣) (رسائل الجاحظ) ج١ ص٢٠ ، ج٢ ص٢٢ .

ومن منطلق العلماء عندما يبصرون طبائع الناس وخصائص الأمم ومميزات الأقوام . . ومن موقع الحرص على التأليف القومي بين الذين جعلتهم الفتوحات يستظلون براية دولة واحدة ، ثم فتحت أمامهم امكانيات تطور متحد . . من هذا المنطلق وذلك الموقع ينبه الجاحظ على ذلك الخطأ الذي غرق فيه وأغرق طرفا الصراع : الشعوبيون ومتعصبو العرب ، عندما زعم كل طرف إن عرقه وجنسه وأرومته هي المحتكر الأول والأوحد لمحاسن الصفات وحميد الأخلاق والجيد من المميزات ، ذلك ان المحاسن والمساوىء ، والطيب والرديء ، صفات توزعت في الناس جميعا والأمم جمعاء ، ولم ولن توجد الأمة الخالصة في المحاسن ولا تلك الخالصة للعيوب ، ومن ثم فان التفاضل بين الأمم انما يكون بغلبة صفات الخير على صفات الشر ، وكثرة الطيبات على السيئات ، فالصفات ، بنوعيها فيض مشاع ، وفي التوجه نحو الطيب كثيرا والتجنب للخبيث غالبا فلتتنافس الامم والشعوب ، كل الامم والشعوب . .

« فلقد اجتمعت الأنس على الصورة ، وأقرّوا بتفرق الأمور المحمودة والمذمومة ، من الجمال والدمامة ، واللؤم والكرم ، والجبن والشجاعة ، في كل حين ، وانتقالها من أمة الى أمة ، ووجود كل محمود ومذموم في اهل كل جنس من الآدميين ، فلكل نصيب من النقص ، ومقدار من الذنوب ، وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوىء ، فأما الاشتمال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوىء دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف ! . . »[1]

وهو هنا يقول ، ايضا ، لطرفي النقيض في هذا الصراع ان ما لكل منهما من ميزات حقيقية من الممكن ان يتخلق بها الآخر ، وخاصة بعد أن أتاحت لهما الدولة الواحدة وجود وعاء للتفاعل القومي والحضاري « فانتقال الصفات من أمة الى أمة » حقيقة واردة ، ومن ثم فهي طريق مفتوح للتآلف والتأليف . .

هكذا أدان الجاحظ ، ممثلا لتيار فكري قومي جديد ، كلا من طرفي

---

(١) المصدر السابق . ج١ ص ١٢٦ ، ٣٧ .

النقيض في ذلك الصراع القومي : تعصب الشعوبية ، والعصبية العربية . . على السواء . .

وثانياً : يرى في الانصهار القومي استجابة لضرورات موضوعية

والجاحظ ، ممثلا لهذا التيار القومي ، لا ينطلق إلى دعوته التأليفية بين العناصر المتصارعة على ساحة الدولة والمجتمع من منطلق « الفكرة » المثالية الخيرة ، أو الحلم المثالي - (الطوبائي) وانما يبصر ، في عمق ، العوامل الموضوعية الجديدة التي نمت وتنمو في ذلك الواقع الجديد .. فعصبية العرب تحيي نعرات الجاهلية وتكبرها ، وذلك بعد أن أدانها الاسلام وشجبها الفكر القومي الذي بذر في تربة الدولة العربية منذ عهد الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، وبعد أن تجاوزتها تطورات ما مر بالعرب منذ ذلك التاريخ من أحداث - والتعصب الشعوبي يقف عند مجد الدولة الاقطاعية الساسانية ، وينطلق من حمية الثأر لنظام كان نكبة على الساسانيين والفارسيين بمقدار ما كان قيدا على العرب والشرقيين أجمعين ، ويجاهد ليحيي ديانة لا ترقى الى عشر معشار ما يمثله الاسلام من رقي في العقيدة والشريعة، لايدانية فيهما دين من الأديان . . يقف الطرفان ، كلاهما ، عند أطلال الماضي ، وينطلقان الى تعصبهم وعصبيتهم منها ، جاهلين أو متجاهلين العوامل الموضوعية ، والأخطار الخارجية التي تهيب بالجميع أن يأتلفوا ، والتي تجعل من الانصهار القومي استجابة منطقية لضرورات موضوعية ، وليس مجرد « دعوة صالحة » وحلم مثالي جميل . .

فلقد ولدت في هذا المجتمع ظروف موضوعية جديدة . . وهي ظروف تأليف وتآلف وجمع وانصهار . . وهي ظاهرة موضوعية ، ولدت وتنمو على حساب عوامل التمزق والتغاير والتخالف التي تمثل مواريث الماضي ، والتي تتجه نحو التقلص والشحوب والذبول . . صحيح إن فروقاً لا تنكر لا تزال قائمة ، وتناقضات لا تجحد، لا تخطؤها العين الفاحصة الباحثة ، ولكن لنضع كل ذلك في حجمه الصحيح . . ثم لنتنبه أن عدواً لوحدة هذه الأمة ينفخ في

أسباب الاختلاف ويدفع في اتجاه الإفتراق . يحدثنا الجاحظ عن ذلك في مقدمة كتابه (مناقب الترك) باعتباره الغرض من تأليف هذا الكتاب ، فيقول : **« وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التي كانت مختلفة ، ولنزيد الالفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن إتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب ، وكم مقدار الخلاف في الحسب ، فلا يغير بعضهم مغير ، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة وشبهات مزورة ، فإن المنافق العليم ، والعدو ذا الكيد العظيم ، قد يصور لهم الباطل في صورة الحق ، ويلبس الاضاعة في ثياب الحزم ؟ ! . . »**[1] .

وكما قلنا ، فهو لا ينكر الفروق والفوارق بين الجماعات التي كانت على عتبة الانصهار القومي ، وفي مراحله الأولى ، والتي كانت العصبية والتعصب يجاهدان لردها عن هذا الطريق . . ولكنه يضع هذه الفروق في اطارها وحجمها ، بل ويدعو إلى اتخاذ هذا « التعدد » كميزة ، تثري حياة هذه الجماعات ، وتغني قسماتها المشتركة الوليدة ، بالتنافس ، بدلاً من التناحر . . ذلك إنهم إذا عرفوا ما بينهم من تمايز ، وما يجمعهم من روابط ، وأبصروا اتجاه حركة نمو « الظاهرة » . . **« سامحت النفوس ، وذهب التعقيد ، ومات الضغن ، وانقطع سبب الأستثقال ، ولم يبق إلا التنافس ! . . »**[2] .

وفي سبيل وضع الفروق والخصائص الخاصة والمميزة لتلك الجماعات ، التي تألفت منها رعية الدولة يومئذٍ في حجمها الحقيقي ، وفي سبيل التنبيه على غلبة عوامل الإتفاق والتآلف ، في سبيل ذلك سلك الجاحظ دربا لعل الكثيرين من الدارسين لم يفطنوا إليه ، فهو قد ألف عدداً من الرسائل ، خصص كل واحدة منها للإنتصار لطائفة من الطوائف ولتفضيل جماعة من الجماعات . . وذلك مثل : (مناقب الترك) و (فخر السودان على البيضان) و (مفاخرة قحطان)

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٤ .

و(تفضيل عدنان) . . الخ . . الخ . . . حتى ليحسب البعض أن الرجل إما كان متناقضاً ، لأنه فضل الجنس ونقيضه والجماعة وغريمتها ! أو أنه كان « سوفسطائياً » ـ بالمعنى الدارج ـ يحتج للأشياء ونقائضها ! . . ولكننا نبرئه من كلا الظنين ، ونراه قد سلك هذا الدرب ليثبت لنا ، في النهاية ، أن كاتباً قديراً وفيلسوفاً مقتدراً مثله يستطيع أن يبرهن على أن الفضل والفضائل هي من نصيب كل جماعة من هذه الجماعات وكل جنس من هذه الأجناس . . وعندما يحدث ذلك ، فلا بد لصاحب الرؤية الشاملة والنظرة التي ترى الظواهر من زواياها المختلفة والمتعددة من أن يتساءل : إذا كان لكل فضل ، وإذا كانت الفضائل في الجميع ، فإن الحقيقة الموضوعية لا بد وأن تكون مع التآلف والائتلاف ، للإشتراك في الفضائل ، ولشيوعها في الأمم والأجناس والجماعات ، ولا بد أن تكون هذه الحقيقة الموضوعية ضد أولئك الذين يتوهمون الفضائل حكراً لفريق ، والرذائل وقفا على فريق آخر ! . .

وثالثا : يعلن عن ولادة قومية جديدة وجامعة

وإذا كان طرفا النقيض المتعصبان يقفان عند الماضي المتخلف . . وإذا كانت هناك ظروف موضوعية جديدة وجدت وتوجد ونمت وتنمو في هذا المجتمع الواحد ـ كما نبه على ذلك الجاحظ ـ وإذا كانت هذه الظروف الموضوعية الجديدة ، تنمو ، كظاهرة ، على حساب الماضي المتخلف . . فان الجاحظ ينتهي من ذلك إلى تسليط الضوء على الآثار النامية والتأثيرات المتزايدة للقسمات المشتركة والسمات المتحدة ألتي أخذت تجمع ابناء المجتمع كلهم ، بصرف النظر على العرق والجنس . . وهو هنا يصل إلى قمة المضمون الانساني والحضاري والمستنير الذي جعله محتوى للفكر القومي الذي قدم بواكير صياغاته النظرية في تراثنا . . فهو يرفض « العرق والجنس » معياراً « للقوم والقومية » ، ويتحدث عن العادات والتقاليد والشمائل وعن اللغة ، وعن الولاء للقوم وفكرهم وحضارتهم . . الخ . . يتحدث عن هذه الأشياء والقسمات ، باعتبارها الروابط والسمات القومية البديلة لوحدة العرق والجنس ، بل وباعتبارها أقوى

من وحدة العرق والجنس . . فهذه السمات التي ولدت ونمت في المجتمع العربي ، والتي ربطت وألفت بين جماعات عرقية متعددة ، قد أصبحت بمثابة « الرحم » الواحد ، الذي ولدت منه هذه « الجماعات »، بل « الجماعة » الواحدة ولادة جديدة . . وبذلك أصبحوا « كلاً قومياً واحداً » على حين ابتعدت بهم هذه السمات ، قومياً ، عن أخوة لهم في النسب لم يكتسبوا مثلهم تلك السمات . .

فالعرب العدنانيون ، ابناء إسماعيل بن إبراهيم ، هم اخوة في النسب والعرق للعبرانيين ، ابناء إسحاق بن إبراهيم . . (عليهم السلام) والعدنانيون ليسوا اخوة في النسب والعرق للعرب القحطانيين . . ومع ذلك فان « تعرب » إسماعيل ونسله ، قد جعلهم مع القحطانيين جماعة واحدة وأمة متحدة تجمعهم جميعاً العادات والتقاليد واللغة والثقافة والولاء . . الخ . . الخ . . وليس ذلك حالهم في الروابط والارتباط مع بني عمومتهم في النسب من العبرانيين . . فليس العرق والنسب معياراً للقومية ، ولا هو من قسماتها وشروطها . . ومن ثم فان الباب واسع والدرب عريض أمام الانصهار القومي والوحدة القومية لهذه الجماعات التي تؤلف المجتمع العربي والرعية في الدولة العربية ، لأنهم وان افتقروا إلى وحدة العرق والنسب ، فان في القسمات التي نمت وتنمو مؤلفة بينهم رحماً جديداً وواحداً ، يولدون جميعاً منه ولادة جديدة ، كقومية واحدة ، مبرأة من عصبية العروق والأجناس . . .

يحدثنا الجاحظ عن هذه القضية الهامة ، ويقدم لنا صياغته النظرية لها عندما يقول : « ان العرب قد جعلت إسماعيل ، وهو ابن اعجميين ، عربياً ، لأن الله فتق لهاته[1] بالعربية المبينة ، ثم فطره على الفصاحة ، وسلخ طباعه من طبائع العجم . . وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصياغة ، ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها . . فكان أحق بذلك النسب وأولى بشرف ذلك الحسب . . **وان العرب لما كانت واحدة فأستووا في التربية وفي اللغة والشمائل والهمّة وفي**

(١) اللهاة : جزء من أقصى سقف الفم ، مشرف على الحلق .

الأنف والحمية ، وفي الأخلاق والسجية ، فسبكوا سبكا واحداً ، وكان القالب واحداً ، تشابهت الاجزاء وتناسبت الاخـلاط ، وحين صار ذلك أشد تشابها في باب الأعم والأخص ، وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوي الأرحام، جرى عليهم حكم الإتفاق في الحسب ، **وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى** ، حتى تناكحوا عليها وتصاهروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بني إسحاق ، وهو أخو إسماعيل ، وجادوا بذلك في جميع الدهر لبني **قحطان،** وهو ابن عابر . . ففي اجماع الفريقين على التناكح والمصاهرة ، ومنعهما من ذلك جميع الامم ، كسرى فما دونه ، دليل على أن النسب عندهم متفق ، **وأن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة . . وإن الموالي بالعرب أشبه ، واليهم أقرب ، وبهم أمس ، لأن السنة جعلتهم منهم . . إن الموالي أقرب إلى العرب في كثير من المعاني ، لأنهم عرب في المدعي والعاقلة ـ (العصبة) ـ وفي الوراثة** ، وهذا تأويل قول الرسول : « مولى القوم منهم » و « مولى القوم من أنفسهم » و « الولاء لحمة كلحمة النسب » . . وعلى شبيه ذلك صار حليف القوم منهم ، وحكمه حكمهم »[1] . .

هكذا طرح الجاحظ القضية . . وهكذا أعلن ميلاد الشخصية القومية العربية الجديدة . . وهكذا نضع يدنا ، في صياغة النظرية هذه ، على الشجرة النامية المثمرة ، تلك التي وضع بذرتها في تربة الدولة العربية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عند ظهور الاسلام . . فالعربي والعروبة ليست عرقا ولا جنساً . . وإنما هي حضارة وولاء وسمات تؤلف وتجمع أولئك الذين يمنحون ولاءهم لهذه الحضارة وتلك السمات ، وذلك بصرف النظر عن العرق والجنس والدين . .

لكن . . لابد من سؤال : لماذا كانت مبكرة تلك النشأة للشخصية القومية العربية ، بالقياس إلى أمم كثيرة ؟ ؟ . .

وهنا لا بد ، كي نجيب ، من الاشارة إلى عدد من الحقائق . .

---

(١) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٢٩ ـ ٣١ ، ١١ ـ ١٤ .

* فالتيار الفكري الذي تصدى لعصبية الشعوبية وتعصب النعرة العربية الجاهلية ، وقدم في صراعه معهما ، بواكير الصياغة النظرية للفكر القومي بتراثنا ، كان هو ذات التيار الذي أعلى من شأن العقل وانتصر له وجعله سيداً وحكماً بالقياس إلى النصوص والمأثورات . . ولقد توزع هذا التيار « القومي ـ العقلاني » في مدارس فكرية وفرق اسلامية عدة ، لكن أبرز فصائله كانوا هم (أهل العدل والتوحيد) ، و (المعتزلة) منهم بوجه خاص . . والجاحظ ، الذي ضربنا بفكره المثل على بواكير الصياغات النظرية في فكرنا القومي القديم هو واحد من أئمة المعتزلة وأعلامهم . . فالعقلانية، بمعناها المتميز في تراثنا ـ والتي سيأتي حديثنا عنها في الفصل القادم ـ كانت وجه عملة ، يمثل الفكر القومي ، بمضمونه الحضاري والمستنير ، الوجه الآخر لها . . علا شأنهما معاً ، وأصابتهما الانتكاسات معاً كذلك . .

* ومنذ وقت مبكر، نسبياً، شهد واقع المجتمع العربي عوامل موضوعية أعانت على النشأة المبكرة لهذا التيار القومي وفكره النظري ، وهنا نذكر بما سبقت إشارتنا إليه من مكان هذا الوطن على طريق التجارة العالمية منذ وقت موغل في التاريخ . . فلقد أدى هذا الموقع إلى أن صنعت حركة التجارة لها بأرجاء هذا الوطن طرقاً ومسالك صارت أشبه ما تكون بالروابط التي تربط أجزاء هذا الوطن ، بل لقد غدت طرق التجارة شرايين تدفع عوامل الوحدة والتآلف بين مدن هذا الوطن وأقاليمه دفع الشرايين للدم الواحد في الجسد الواحد . . فنمت فيه ، أكثر من غيره وأسرع من غيره ، العادات والتقاليد والقسمات التي تجمع وتوحد بين القاطنين فيه . . الأمر الذي جعل تطوره نحو تبلور الشخصية القومية وظهور الفكر القومي أسرع من سواه . .

* لقد كان طبيعياً، بل وحتمياً، أن تنمو مع حركة التجارة النشطة قوى اجتماعية تمارس التجارة وترتبط بطرقها ومدنها وبالأنشطة المساعدة في انجازها والمعينة على أعمالها . . . وبحكم التفاعل بين هذه القوى وبين أبناء الحضارات الأخرى ، فلقد كانت قسمة العقلانية عندها أوضح منها عند سواها . . وبحكم ارتباط أزدهار التجارة ونموها بوحدة الوطن ، التي تزيل

الحواجز ، وترفع المكوس ، وتؤمن الطرق ، وتيسر الخدمات . . كان ارتباط هذه القوى الاجتماعية بكل ما يوحد الشخصية القومية للمجتمع ويزيل من ساحته الفكر العنصري ، والاقليمي ، والضيق الأفق . . شعوبياً كان ، أو عربياً جاهلياً . .

* ولقد أعان هذه القوى الاجتماعية النامية على أن تنجز ما انجزت على درب وحدة الوطن ، ومن ثم توحيد الأمة ، أن نمط الانتاج الاقطاعي في المنطقة لم يكن كمثيله في أوربا ، امارات اقطاعية ذات حواجز كاملة وشاملة ، جعلت من حدودها حدوداً في الإدارة والسياسة والتشريع كما هي حدود في الاقتصاد . . فنمط الانتاج في الشرق الذي حكمته المركزية التي نشأت منذ القدم في أحواض الأنهار ، قد جعل الطريق لتوحيد الوطن ووحدة الأمة أكثر يسراً مما كان الحال عليه في ظل إمارات الاقطاع الأوربي المغلقة الحدود والعالية الأسوار . .

ولقد كان التجار العرب ، هم ، غالباً علماء عرب . . والذين يعلمون الدور الأكبر الذي لعبه التجار ولعبته قوافل التجارة في نشر اللغة العربية ، ونشر الاسلام ، يعلمون الدور الذي لعبه التجار ولعبته التجارة في التقريب والتوحيد بين السمات والقسمات التي غدت ، مع الزمن ، الروابط القومية الواحدة لهذه الجماعة العربية الواحدة ، منذ ذلك الوقت المبكر في التاريخ .

* ومن هنا فليس غريباً، وليست مصادفة أن نجد جمهوراً كبيراً من أعلام المعتزلة وعلمائها تجاراً وأصحاب حرف وصناعات ، ومن ثم أن نجدهم فرسان الفكر القومي العربي ، والمنتصرين لمقام العقل في تراثنا . . ولقد كان الجاحظ ، الذي قدمنا اشارات لفكره القومي هو صاحب أقدم كتاب عن التجارة في تراثنا ـ (كتاب التبصر بالتجارة) ![1] . .

وليس غريباً ، وليست مصادفة كذلك أن نجد المدن والحواضر التي انتشر فيها فكر المعتزلة أكثر من غيرها هي المدن والحواضر المرتبطة بطرق التجارة في

---

(١) انظر كتابنا (الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية) ص ٢٢٠ ـ ٢٢٥ .

ذلك التاريخ ؟ ![1] . . فهذه القوى الاجتماعية كانت أكثر من غيرها ، أكثر من بدو الصحراء وأعرابها، وأكثر من فلاح الأرض المتوطن في قريته . . كانت أكـثر مـن هؤلاء ارتباط مصلحة بوحدة واتحاد المجتمع ، وأيضاً أوسع أفقا من هؤلاء وهؤلاء .

* ولقد أعان على هذا النمو المبكر لهذا الفكر القومي ، الذي عكس تبلور الشخصية القومية المبكر أيضاً ، أن دين الاسلام ، وهو الذي كان « ايديولوجية » المجتمع عبر هذا التاريخ ، لم يكن دينا لعنصر أو قوم أو جنس أو شعب بعينه، كما كان حال الأديان من قبل، فرسالته إلى الناس كافة، ورسوله، صلى الله عليه وسلم، مبعوث للبشر أجمعين. . ووضوح هذه القسمة العالمية في الاسلام كانت ، بالتأكيد ، عونا للذين ارتبطت مصالحهم وطمحت نفوسهم واستشرفت عقولهم آفاق الدائرة القومية ، فهذه الدائرة وان كانت أدنى من الأفق العالمي والانساني ، الا أنها أوسع من حدود الجنس والعرق والعصبية . . وإذا كان بلوغ الاسلام بأهله دائرة العالمية والانسانية قد عز على امكانات ذلك العصر ، فلقد أعانهم على تخطّي حدود العرق وحواجز العصبيات إلى رحاب الدائرة القومية ، فدخلوها قبل غيرهم ، وانطبعوا بطابعها قبل الكثيرين . .

وهكذا نجد أنفسنا امام عوامل موضوعية ، نمت في المجتمع العربي بعد الفتوحات ، أثمرت سمات توحيدية ، ونسجت خيوطا موحدة ألفت بين الجماعات التي أصبحت عربية ، بالحضارة والولاء ، بصرف النظر عن الأنساب والدماء والمواريث المختلفة التي سبقت على فتح العرب المسلمين لبلاد هذه الجماعات . .

ونجد ، كذلك ، الغلبة لهذه السمات القومية في الصراع الذي خاضته ضد طرفي النقيض اللذين اجتهدا وجاهدا لتمزيق أوصال الدولة ، بالانشقاقات والتفتت ، كما كان حال الشعوبية . . وبالقهر ، الذي لا بد أن يدفع المقهورين إلى الانشقاق ، كما كان حال العصبية الجاهلية للأموين . .

---

(١) المرجع السابق . ص ٢٤٠ ـ ٢٤٧ .

وعندما يتأمل المرء هذه الحقيقة يدرك عبقرية هذه الأمة وأصالتها . . فأمام التحدي الذي فرض عليها يومئذ ، تحدي العصبية والتعصب ، جددت ذاتها ، وأبصرت مصالحها ، وأحيت خير ما في تراثها ، فكان أن أبرزت عوامل الوحدة على أسباب التمزق ، ورفعت قسمات التأليف على أمارات الشتات ، وكان أن أجابت على ذلك التحدي بهذه الشخصية القومية الواحدة ، وذلك الفكر القومي ، طوقي نجاة ، سبقت بهما أمما كثيرة في هذا الميدان . .